الروائي الفلسطيني صاحب «مجانين بيت لحم» الفائزة بجائزة الشيخ زايد يراها انحيازاً للمهمشين

أسامة العيسة: نستعين على الاحتلال بالمجانين.. ولولاهم لما صمدت قضيتنا

رام الله، يوسف الشايب

بروايته «مجانين بيت لحم»، استطاع الفلسطيني أسامة العيسة، تكريس نفسه كاسم له حضوره الخاص، خصوصا بعد فوز الرواية الذي مرّ بـ«مراحل مطوّلة من الدراسات الموضوعية والدقيقة والمراجعة المستفيضة، من جانب (لجنة الفرز والقراءة)، و(لجان التحكيم)، و(الهيئة العلمية) للجائزة، ومجلس أمنائها، التي تم خلالها فرز الأعمال المشاركة من 31 دولة عربية وأجنبية، ضمن قائمة طويلة وأخرى قصيرة»، كما قال مدير عام الجائزة. «الشرق الأوسط» تحدثت إلى العيسة، وكان لها هذا الحوار:

● نبدأ الحوار بالسؤال التقليدي حول شعورك بفوز رواية «مجانين بيت لحم» بجائزة الشيخ زايد. وما تضيفه للأدب الفلسطيني عموما، والرواية الفلسطينية على وجه الخصوص؟

- الفوز بجائزة بمثل هذه الأهمية، أشعرني بأن في عالمنا العربي وفي أوساطه الثقافية، مَن فهمني وقدر ما أردت إيصاله، من رواية أردتها جديدة كل الجدة في الشكل والمضمون، خصوصا عندما اطلعت على ما نُشر من تقرير لجنة التحكيم، وما علمته من آراء المحكمين في الرواية.

أعتقد أن وصول الرواية، هو أولا مهم بالنسبة لي شخصيا لمواصلة مشروعي الروائي بثقة أكبر. وما فاجأني، كان الاهتمام «الجماهيري» في فلسطين، إن جاز التعبير بفوزي بالجائزة، وهو ما يجعلني أسمح لنفسي، بأن أعتبر الفوز فلسطينيا أيضا.

بالنسبة للأدب الفلسطيني، أنا لدي وجهة نظر، أؤكد أنها شخصية، تتعلق بالحالة التي عاشها هذا الأدب، خاصة في الأراضي المحتلة بعد اتفاق أوسلو، حيث ما حدث ليس تراجعا وحسب، ولكن ما يشبه الغفوة الطويلة، وميل كثير من الأصوات الجديدة -في النماذج التي اطلعت عليها- للذهاب بعيدا في الفردانية التي أسميها «غير إبداعية». صحيح أن بعض الكتاب واصلوا الكتابة، ولكن هؤلاء الذين تركوا بصمة في الماضي، لم يتمكنوا من فعل ذلك في المرحلة الجديدة التي كانت مرحلة جزر ثقافية، على الأقل.

الجوائز العربية التي تتمتع بمقدار من المصداقية، أقلها تمكنت من وضع الأدب الفلسطيني الجديد، على المحطة التي كانت يجب أن يكون عليها هذا الأدب عربيا وربما عالميا، وهو ما رأيناه في تجارب إبراهيم نصر الله، وربعي المدهون، وأنور حامد، وغيرهم ممن وصلت أعمالهم إلى قوائم هذه الجوائز.. أنا أرى وصول روايتي إلى جائزة الشيخ زايد، في هذا الإطار.

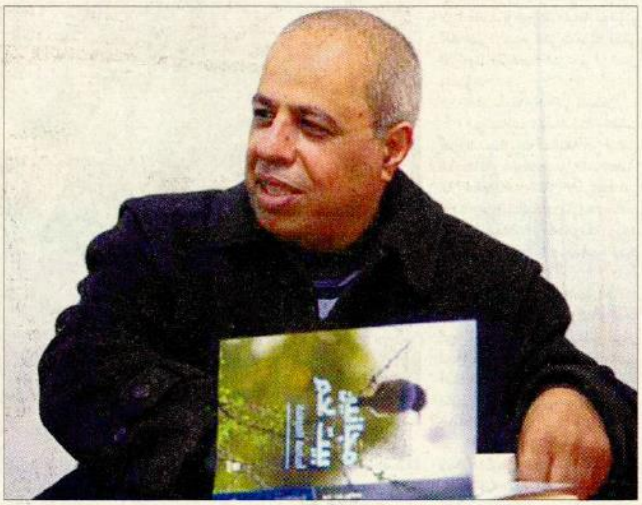

أسامة العيسة يوقع روايته في إحدى المناسبات الثقافية قبل الفوز

مسؤولية كبيرة

● ماذا تضيف الجائزة لأسامة العيسة الذي نقش اسمه بعمق في عالم الرواية العربية، وقد يصبح كذلك على مستوى عالمي، وقبلهما المحلية بطبيعة الحال؟

- منذ الآن، أشعر بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقي، من خلال ما غمرني به القراء والأصدقاء وجهات مختلفة، من دفء وحب وفرح. أنا أكتب بانتظام منذ سنوات، كل نشاطاتي الحياتية الأخرى، مسخّرة لخدمة الكتابة، سأواصل على هذا النهج. أزعم بأن لدي مشروعي الروائي، ومن الجيد أن هناك من يقدره، ولكنني سأكون أكثر حرصا عند دفع أي عمل جديد للنشر.

شركاء في الجائزة

● هل توقعت وصول روايتك إلى الجائزة، في مواجهة روائي مصري عريق كإبراهيم عبد المجيد، وغسان زقطان الشاعر الفلسطيني الذي بات الأبرز محليا وعربيا وعالميا؟

- عندما ظهرت روايتي في القائمة الطويلة بين أسماء عربية بارزة، تتلمذ جيلي أدبيا على نتاج بعضها، شعرت بأني أسير في الطريق الصحيح إبداعيا. وعندما فوجئت بالرواية في القائمة القصيرة، سعدت بالروائي إبراهيم عبد المجيد الذي قرأت معظم أعماله وأعجبتني، والصديق الشاعر غسان زقطان الذي يراكم تجارب ويواصل مشواره الإبداعي بثقة. وكان ذلك كافيا لأن أشعر بالفوز، بغض النظر إذا ما كانت الرواية ستحتل المرتبة الأولى. أعتقد أننا جميعا فزنا. نحن شركاء في الجائزة، ولسنا متنافسين.

آراء ونقد في الرواية

● هناك من يقول إن فوز روايتك كان لفكرتها، وإنها لا تندرج في إطار الرواية إلا في القسم الأخير منها، سفر مشمشي.. ما تعليقك؟

- أنا أحترم كل الآراء بخصوص روايتي وسعيد بها، وأشعر دائما بضرورة ترسيخ المناخ الليبرالي في مجتمعاتنا. منذ أن خرجت الرواية من المطبعة لم تعد لي، بل للقراء والنقاد، ولذلك من حق كل منهم أن يكوّن رأيه فيها، وأعتقد أنه بمثل هذه الآراء يمكن إثراء المشهد الأدبي، وليس بسماع الصوت الواحد والرأي الواحد، وأحيانا يحلو للواحد منا أن يسمع صوته فقط.

● هناك من عاب على الرواية وقوعها في فخ الصحافة والتاريخ على حساب الرواية؟

- في كتابة هذه الرواية، استفدت من أساليب فنية مختلفة، منها البحث التاريخي، والتحقيق الصحافي الاستقصائي. وكان ذلك مقصودا، بل أنا فخور بذلك. لم يكن التعامل مع الأمر سهلا. أعتقد بأن ذلك لم يغن الرواية وحسب، ولكنه كان تطبيقا عمليا لما أريده من هذا الفن العظيم والمبهر الذي أسميه رواية. ولكي أثبت أن لا شكل ثابتا لهذا الفن، بل إن تقوقعه في شكل محدد هو ما يضر به. أنا أكتب رواية بطريقة جديدة. هذا المهم، ولن أكرر كتابة «الرواية» مرتين، بمعنى أنني في كل عمل، أخوض مغامرة محسوبة ومتعبة في الشكل والمضمون، والمسألة ليست سهلة. أنا لن أكتب رواية قائمة على اجترار ذكريات، أو شذرات سيرية، أو تهويمات سياسية وفكرية وأيديولوجية، أنا أكتب رواية عربية جديدة وحداثية، تنهل من مواعين كثيرة.

● كتب أحدهم يقول: «أصر كاتب هذا الكتاب، تصنيفه تحت بند الأعمال الروائية، مع أنه لا يمتّ لها بصلة. والعجيب أنه لم يكلّف نفسه عناء اصطناع أي شيء يجعل هذا عملا روائيًا».. ما رأيك فيما قيل؟

- أحترم هذا الرأي، ربما استند صاحبه على حيثيات معينة جعلته يستنتج هذا الاستنتاج.

قصص متفرقة

● كاتب هذا العمل صحافي وباحث في التراث. في هذا العمل يقدّم بحثا وتحقيقات صحافيّة سيرية اجتماعية، ومذكرات متفرقة حول مدينة بيت لحم ومخيّم الدهيشة. مسقط رأسه، وعن البلدة وناسها، ما سمعه عنها وما قرأه.. قصص متفرقة لأناس لا يجمعهم رابط سوى مدينة بيت لحم، بعضها يعود لما قبل قرنين من الزمن، وأكثرها يتركّز حول فترة الاحتلال الإسرائيلي سنة 1967 وما تلاها.. هل توافق على هذا التحليل؟

- أنا قدمت المكان الفلسطيني، بارتكاز على بقعة جغرافية معينة في مدينة بيت لحم، اسمها الدهيشة. وتتبعت من خلال ذلك العصف بالمكان، من خلال توالي سلطات تبدو أنها لا نهاية لها، وفي ظرف زمني ليس طويلا: العثمانيون، والبريطانيون، والمصريون، والأردنيون، والإسرائيليون، الحكم الذاتي المحدود جدا.. إذا وجد من رآها أنها حكايات متفرقة، فمن الجيد أنه وجد رابطا واحدا جمع بينها.

المهمشون والفقراء

● لطالما ركزت على انحيازك للمهمشين والفقراء في كتاباتك كصحافي، والآن كروائي.. كيف انعكس هذا التوجه في «مجانين بيت لحم»؟

- الرواية انحياز كامل للمهمشين، الذين تنظر إليهم السلطات التي توالت على حكم ناسنا وقهرهم، كخزان للحروب، وقطيع يدر ضرائب. أنا منحاز لهؤلاء، لأنني واحد منهم، الرواية محاولة لتقديم أكثر الفئات تهميشا، وهم نزلاء مشفى الأمراض النفسية في بيت لحم، وهو المشفى الرئيسي لمثل هؤلاء في حدود فلسطين الانتدابية لفترات طويلة من الزمن. هؤلاء ساهموا بطريقتهم في الانتفاضات الفلسطينية، ودفعوا ثمن عسف السلطات والاحتلالات المتعاقبة، ووجدوا أنفسهم في الواقع الجديد بعد اتفاق أوسلو، هدفا للسلطة الجديدة لتشييد أي مبنى حكومي على أرضهم، إضافة إلى حضور دول كبرى مثل روسيا، وألمانيا، أرادت حصتها من وطنهم المعنوي، وفي الوقت ذاته هم لا يستطيعون رفع الصوت، ولم تهرع إليهم الأحزاب أو الفصائل أو مؤسسات حقوق الإنسان، الجميع نظر «للغزو» الذي هدد مكانهم، على أنهم شيء طبيعي.. أيوجد أكثر تهميشا من هؤلاء؟

إعادة تركيب الرواية

● البعض قال بأنك أعدت تركيب الرواية الفلسطينية في «مجانين بيت لحم»؟

- أنا حاولت، وطمحت لذلك، وهو ما جعلني أؤجل نشر هذه الرواية، كما هو حال بقية أعمالي، لسنوات، وأمل أن أكون قد حققت نجاحا ولو نسبيا.

على جيلنا الأدبي، لكي يكتسب مشروعية، أن يسعى دائما لحلحلة ما هو موجود، والعمل على إعادة التركيب، والتجديد، والمسألة ليست سهلة، ولكنها تشكل تحديا لهذا الجيل.

● هناك من وصفها بأنها رواية فلسطين الموازية؟

- نعم هي كذلك. لقد تناولت الواقع الفلسطيني ضمن فضاءات تاريخية وغرائبية، أردت أن يكون القارئ مشاركا في الدخول إلى فلسطين، ليس من بوابة الجنة المفقودة والمناجاة الشعرية الغنائية، بل بمغافلة الندابين، ومناقضا إرثا أدبيا طويلا، ليدخلها من بوابة موازية بين الواقع الفج والأسطورة الشعبية.

ماذا بعد؟

● ماذا بعد «مجانين بيت لحم»؟ وهل من ترجمات للغات أخرى؟

- أمل أن يكون وصول الرواية إلى الجائزة فرصة لنقلها إلى لغات أخرى. أرغب بشدة أن يسمع كل الناس على هذه الكرة صوت المجانين في فلسطين، حيث تغيب، في معظم الأحيان، الخطوط التي يمكن أن يضعها الناس أنفسهم للفصل بين عالمي «المجانين» و«العقلاء».

في فلسطين، نستعين على الاحتلالات التي لا تنتهي بالجنون. ولولا مجانينها ربما ما صمدت قضيتها. ولدت وأعيش في مخيم الدهيشة للاجئين، لأبوين هُجّرا من قريتهما ومنزلها. منذ 67 عاما ونحن نحلم بالعودة. أمي عمرها مائة عام، وتتعامل مع الأمور وكأنها ستعود غدا إلى منزلها، وقن الدجاج. أي جنون نحتاجه لتحمل كل ذلك؟